

حدود تطبيق التأويلية على النص الديني في مشروع نصر حامد أبو زيد

د/ نصيرة بوطغان

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

الجزائر

البريد الإلكتروني: nasserasafo@yahoo.com

تاريخ النشر: 2023/12/30	تاريخ القبول: 2023/11/22	تاريخ الإرسال: 2023/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

مقدمة:

يعد نصر حامد أبو زيد، من المفكرين الذين حملوا هم الأمة العربية وعان من تخلفها المعرفي والمنهجي، وكان يعتقد أنه من بين أسباب تخلفنا هو القراءات التراثية للنص الديني، لذلك دعا إلى ضرورة التجديد في المناهج متأثراً بما يحدث في العالم الغربي ومنجزاته المعرفية والمنهجية، كما دعى إلى ضرورة إعادة بناء علاقة القارئ بالنص في أفق مناهج العلوم الإنسانية الحديثة مثل التأويلية، ولا يقدم نصر حامد أبو زيد تعريف مغايراً للتأويلية أو الهرمينوطيقا وإنما يحافظ على الدلالة التي استقر عليها في الفضاء التداولي الغربي بكونها فن الفهم الذي يتأسس على قطع الصلة مع مؤلف النص أولاً وعلى تعدد المعنى وتكثره ثانياً وعلى مركزية المؤول ثالثاً انطلاقاً من أفقه المعرفي وسياقاته الثقافية والفكرية والاجتماعية، لهذا نتساءل عن المرجعيات الفكرية والمنهجية التي ساهمت في تشكيل رؤية نصر حامد أبو زيد؟ وهل فعلاً حقق نتائج ثورية بتبنيه للتأويلية في قراءة النص الديني؟ وبما أن المقاربة التي قدمها نصر حامد أبو زيد حول النص القرآني والتي استند فيها على التأويلية (الهرمينوطيقا)، لم تسلم من الانتقادات خاصة وأنه قدم رؤية مبنية على مخرجات المناهج الحديثة دون أن يتعرض بالنقد لتلك المناهج وإمكانية إخفاقها فما هي أبرز الانتقادات التي وجهت لمقاربة نصر حامد أبو زيد في التأويل؟

يوجد تداخل بين العديد من المفاهيم خاصة عندما يتعلق الأمر بمصطلح التأويل، فقد يرادف الشرح والتفسير والهيرمينوطيقا، ولكن المفهوم الذي يتداول في حقول المعرفة المعاصرة هو الهيرمينوطيقا بمعناها التأويل، فما المقصود بالتأويل؟ وما المقصود بالهيرمينوطيقا؟
أولاً: في ماهية التأويل:

جاء في لسان العرب لابن منظور تحت مادة التأويل: " أول الكلام وتأوله. دبره و قدره، وأوله وتأوله، فسرّه. المراد بالتأويل نقل ظاهرة اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهرة اللفظ. والتأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه.¹ الملاحظ أن فعل التأويل هو محاولة صرف اللفظ من معناه الحرفي المعطى الظاهر إلى دلالاته الباطنية، مما يعني أن فعل التأويل ليس متاحاً لعامة الناس وإنما متاح لمن يملك آليات معرفية ومنهجية تمكنه من استنطاق مضامين النص وتجاوز ما هو مصرح به إلى محاولة الكشف عن المقاصد المسكوت عنها داخل النصوص.

و حدده ابن رشد بأنه " هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عدت في تعريف أصناف الكلام المجازي".² إذا التأويل انطلاقاً من التحديد الذي قدمه ابن رشد يصبح عمل عقلي احترافي يشترط على المؤول التمتع بجملة من القدرات اللغوية والعقلية ليتمكن من الغوص في عوالم النص والكشف عن المعنى الخفي الذي يسكن الاستعارة والمجاز.

ثانياً: في مفهوم الهيرمينوطيقا:

³ مصطلح هيرمينوطيقا اللغوية hermeneutique إغريقي من hermenia "هرمينيا"، تمتد من ناحية تاريخية إلى الأساطير اليونانية، وكانت تعني (هورمس) Hermès وهرمس هو بمثابة الوسيط بين الآلهة والبشر، ودوره شرح وتفسير الخطاب الإلهي للناس بلغة بسيطة واضحة، وكأن دوره إعادة

¹ ابن منظور ، لسان العرب ، الجزء الأول ، دار إحياء التراث ، مؤسسة التاريخ العربي ، لبنان ، ط 3 ، 24 .
ص، 1999 عام

بن رشد ، فصل المقال في ما بين الحكمة و الشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيق محمد عمارة ، دار المعارف، مصر
ط 2 ، ص 32. ²

تأويل الخطاب الإلهي بلغة بشرية، وتبقى غاية الهرمينوطيقا بلوغ فهم أفضل وتجاوز كل لبس.⁴ وقد ترادف الترجمة كوسيلة لنقل مضامين النصوص بلغات مختلفة.

وقد تعرض نصر حامد أبو زيد في كتابه « إشكاليات القراءة وآليات التأويل » للمصطلح، مؤكداً أنه يعود إلى سنة 1654م. والهرمينوطيقا في البداية ارتبطت بالنصوص اللاهوتية أو الدينية المقدسة، على اعتبارها مجموعة من القواعد التي ينبغي على المفسر أو الشارح أن يلتزم بها في عملية تقديمه للنصوص الدينية، لكن مع مجيء الألماني شلاير ماخر، توسعت دائرة المصطلح ليشمل كل النصوص الأدبية والفلسفية، وشلاير ماخر حسب نصر حامد أبو زيد اشترط شرطين في المؤول يقول: "يحتاج المفسر للنفاذ إلى معنى النص إلى موهبتين، الموهبة اللغوية، والقدرة على النفاذ للطبيعة البشرية"،⁵ وفي العصر الحديث صار لكل حقل معرفي هرمينوطيقاه، ولكل هرمينوطيقا قواعد خاصة.⁶

أما حسن حنفي فعمل على تأصيل المصطلح معتبرا الحضارة الإسلامية حضارة نص، وقد مارست التأويل بمعناه الهرمينوطيقي في القرون الأولى.⁷

الهرمينوطيقا هي كل ما يتعلق بالتفسير والتأويل والفهم، ومادتها الخام هي اللغة أو النص، ولا يمكن تأسيس خيرمينوطيقا خارج النصوص، وهذا يعني أن اللغة عنصر أساسي في كل الفلسفات، لكن استخدامها يختلف من فلسفة إلى أخرى، وكل الفلسفات تنظر إلى اللغة كوسيلة للتداول والتواصل، لكن المهم هم كيف نوظف اللغة؟ ويعد الأمريكي بلونفيل أول من طور فكرة استخدام اللغة، وفي البنيوية اللغة بناء صارم لأي تفكير وأية معرفة، واللغة عند كل من هيدغر وهوسرل في النهاية هي الرمز، وهي رمز الكينونة أو الإنسان وعبرها يمكن فهم الإنسان، وإذا كانت الهرمينوطيقا "فن الفهم"، فإن الفهم يمر عبر اللغة، وتوجد عدة مستويات للهرمينوطيقا يمكن تحديدها في:

1- المستوى الميتودولوجي: ويبدأ باللغة كمعطى أساسي ومنه تنطلق مختلف القراءات، وإمكانية الفهم والتأويل وهذه اللغة موجودة في النص، ومن ناحية منهجية لا يمكننا الحديث عن الهرمينوطيقا خارج اللغة، لأن البدايات كانت مرتبطة بالنصوص الدينية، وإشكالية التأويل تطرح سؤال الترجمة.

⁴ - ديفيد جاسير، مقدمة في الهرمينوطيقا، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2007، ص21

⁵ - ينظر نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط5، 1999 ص 20-21

⁶ - نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط5، 1999، ص14

⁷ - حسن حنفي، حصار الزمن الحاضر، إشكالات الحاضر، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1، 2003، ص08.

2-المستوى الابدستيمولوجي: يقع بين المستوى الميتودولوجي والمستوى الفلسفي، والمعروف أن الابدستيمولوجيا تدل على النقد، فإذا كانت الميتودولوجيا دورها توفير المادة الأولية وهي النص فإن الابدستيمولوجيا تعمل على المحافظة على النص عبر النقد الداخلي والخارجي، وعليه ففي المرحلة الأولى يتم توفير المادة (النص) وفي الثانية توفير المنهج (الابدستيمولوجيا).

3-المستوى الفلسفي: يتعلق بما هو نظري وهي محاولة بلورة تصور معين حول المفاهيم الأساسية التي تشكلها حول نص معين، وهنا الذات تصل درجة الابداع، وهذه المستويات متداخلة، مما يعني أن العملية الهرمينةوطيقية عملية متكاملة يحاول عبرها القارئ ا ابتعاد عن الأحكام المسبقة. وإذا قلنا أن الهرمينةوطيقا قد ارتبطت بالنصوص الدينية في بداية تبلورها ثم اتسعت دائرتها لتشمل مختلف النصوص، فإن السؤال المطروح هو كيفية تلقي الثقافة العربية لهذه الفلسفة أو المنهج؟

ثالثا:- أسس القراءة التأويلية للنص القرآني عند نصر حامد أبو زيد:

لا يقدم نصر حامد أبو زيد تعريف مغايرا للتأويلية أو الهرمينةوطيقا وإنما يحافظ على الدلالة التي استقر عليها في الفضاء التداولي الغربي بكونها فن الفهم الذي يتأسس على قطع الصلة مع مؤلف النص أولا وعلى تعدد المعنى وتكثره ثانيا وعلى مركزية المؤول ثالثا انطلاقا من أفقه المعرفي وسياقاته الثقافية والفكرية والاجتماعية، ومن هنا فهو يقترب من غادمير وبول ريكور، مما يعني أنه يركز في قراءته على الجانب الرمزي أو اللغوي، بحكم أن الرمز لا يكشف عن المعنى بقدر ما يخفيه مفرزا معاني مزيفة، ووظيفة التأويل هو زحزحة المعاني المزيفة والكشف عن المعاني الحقيقية التي تسكن وراء الرموز. وتتأسس القراءة التي قدمها نصر على ا اعتبارات التالية:

1-تعدد وتكثُر المعنى: إن اعلان رولان بارت موت المؤلف هو ايزان بفتح النص على القراءات المتعددة والمختلفة، حد الصراع بلغة بول ريكور(صراع التأويلات)، وليس بعيدا عن تفكيكية جاك دريدا الذي يعلن هو الآخر عن فقدان الأصل وإلى الأبد، وهذا يعني أن كل قراءة في نظر نصر هي قراءة تاريخية لها شروطها الموضوعية، ويصبح المعنى كائن تاريخي في حالة ترحال دائم، والكشف عن المعنى لا يمر عبر الألفاظ فحسب وإنما يمر عبر القراءة الداخلية للنص، والقراءة الداخلية تكشف عن الحوار بين النصوص (التناص)، وإذا تعاملنا مع النص في أفقنا فنحن نستبعد جملة من العناصر كانت

مركزية في القراءة الكلاسيكية وهي المؤلف وسياقات انتاجه للنص ومقاصده الذاتية، والرهان صار النص وبنية النص السيميولوجية، تلك هي القراءة المتعددة.⁸

2-من مركزية الكاتب إلى مركزية القارئ: وتفيد ضرورة استدعاء النص إلى أفق القارئ ورهاناته المعرفية والمنهجية، والتحرر نهائيا من مقاصد المؤلف والتركيز على مقاصد القارئ، لكن الإشكالية لما نتعامل مع النص الديني، هل يمكن أن نطبق نفس المنهجية؟ يرى نصر حامد أبو زيد أن فعل القراءة والتأويل هي حياة النص وخلوده سواء كان نص بشري أو إلهي.⁹

3-التأويل ضروري كلما كان هناك سوء فهم: كل خطاب يحتاج إلى تأويل، وممارسة القارئ للتأويل تتم في الأفق الذي ينتهي إليه(الأفق الثقافي)، قبل التواصل مع النص كبنية لغوية.¹⁰ والقراءة الحقيقية هي التي لا تقول مايقوله النص وانما تنتج المختلف، وإذا كانت القراءة الهرمينوطيقية تتأسس على منطق الاختلاف والتعدد فكيف يمكن التأسيس لقراءة متوازنة للنص الديني؟

4-مبدأ فائض المعنى والمقاصد: المعنى عند نصرأبو زيد مرادف للدلالة، في حين المقصد(المغزى) فمرتبط بأفق القارئ أو المؤول، ولا يتم فهم المقاصد الحقيقية إلا عبر معجم لغوي يمكننا من فهم دلالة الألفاظ في مرحلة النزول لكي نتمكن من اعطائها دلالة تستجيب لرهانات القارئ واشراطاته.¹¹ وهذا يفيد ضرورة التحول بالنص من أفق دلالي قديم إلى أفق دلالي حديث.

5-التأويل سر خلود النص عبر اعادة انتاجه: دور المؤول هو اعادة خلق النص من جديد لأن لكل نص هوية وكيونة، ولا وجود لنص خارج سياقاته، والقارئ هو الذي يمنح للنص قيمة وجوده واستمراريته، ويظل الحوار بين النص والقارئ مستمرا في عملية انتاج الدلالة، ولا يمكن لأي قارئ أن يدعي أنه تملك حقيقة النص أو أمسك بمقاصده الحقيقية، وكل نص يتمنع عن التأويل مصيره الفناء.¹²

⁸-أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر القاهرة، 1994، ص55

⁹-أبو زيد ، نصر حامد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي المغرب، 2000، ص200.

¹⁰-نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص16.

¹¹-نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، 1995، ص159.

¹²- أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر القاهرة، 1994، ص200.

6- المؤول والمسكوت عنه: دور المؤول هو الالتفات لما لم يعلن عنه النص أو سكت عنه أو قام بحجبه عن طريق الرمز أو الاستعارة أو الاسطورة أو المجاز، ويطلب نصر حامد أبو زيد من القارئ العمل على كشف ما لم يقله النص أو صمت عنه.¹³

7- أنسنة النص الديني: يؤكد حامد أبو زيد أن النص الديني منذ اللحظة الأولى أو لحظة النزول فقد طابعه الإلهي واكتسب طابعه الإنساني أو البشري، لأنه كما يقول تحول من التنزيل إلى التأويل، وكل متلقي هو في موقع المؤول¹⁴، ويسوي نصر حامد أبو زيد بين كل الخطابات ويردها إلى البنية الثقافية، عندما يقول: "إن كل الخطابات تتساوى من حيث هي خطابات وليس من حق أي منها أن يزعم إمتلاكه للحقيقة. لأنه حين يفعل ذلك يحكم على نفسه بأنه خطاب زائف."¹⁵ مهما كانت طبيعة النصوص فهي كائنات تاريخية تأنسنت وتنزلت في التجربة الإنسانية وصارت تتحدث للغة البشرية، لذلك المؤول مطالب بالبحث عن الإنساني في النصوص الدينية وليس الإلهي. لأن الخطاب الإلهي عبر النص خطاب موجه للإنسان وبلغة إنسانية.

8- التناس: يعتقد نصر حامد أبو زيد أن النصوص القرآنية نصوص مضاعفة على طريقة رولان بارت، يقول: "النص القرآني منظومة من مجموعة من النصوص"¹⁶، ويذهب بعيدا نصر حامد أبو زيد حين يشبه النص القرآني بنصوص الشعر، وهي نصوص متداخلة ومتفاعلة ومنتجة لبعضها البعض كذلك حال النص القرآني فيه تداخل مع بعض النصوص القديمة، لكن الفرق يكمن في المدة الزمنية التي استغرقها النص القرآني في التشكل، كما يؤكد نصر حامد أبو زيد على ظاهرة تفاعل النص القرآني مع البيئة الثقافية التي كانت سائدة ومع المعجم اللغوي، لأن كثير من ألفاظه كانت متداولة.

رابعا:- مخرجات قراءة نصر حامد أبو زيد للنص القرآني:

يمكن اجمالها في النقاط التالية:

- النص القرآني منتج ثقافي غير متعال عن التاريخ والسياقات البشرية.

¹³ - أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر القاهرة، 1994، ص36

¹⁴ - أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر القاهرة، 1994، ص126

¹⁵ - نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة، الفكر الديني بين الإرادة المعرفية وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص08.

¹⁶ - نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، 1995، ص105

- دراسة النص القرآني ينبغي أن تبدأ من دراسة السياقات الثقافية التي كانت سائدة.
- النص القرآني نص لغوي كباقي النصوص لذلك فينبغي أن نطبق عليه نفس المناهج المطبقة على النص الأدبي.
- أسقط صفة القداسة عن النص الديني لأنه مرتبط بالزمان والمكان، فهو نص بشري من حيث البنية اللغوية.

خاتمة:

إن المقاربة التي قدمها نصر حامد أبو زيد حول النص القرآني والتي استند فيها على التأويلية (الهيرمينوطيقا)، لم تسلم من الانتقادات خاصة وأنه قدم رؤية مبنية على مخرجات المناهج الحديثة دون أن يتعرض بالنقد لتلك المناهج وإمكانية اخفاقها، رغم أن تلك المناهج قد تعرضت للنقد في السياقات التي انتجت فيها، ويبقى نصر حامد أبو زيد كغيره حاول مركزة التخلف الحضاري للأمم في النص الديني.

المراجع المعتمدة:

- 1- ابن منظور ، لسان العرب ، الجزء الأول ، دار إحياء التراث ، مؤسسة التاريخ العربي ، لبنان ، ط3 ، 1999.
- 2- ابن رشد ، فصل المقال في ما بين الحكمة و الشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيق محمد عمارة ، دارالمعارف، مصر، ط2 .
- 3-- ديفيد جاسير، مقدمة في الهيرمينوطيقا، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2007.
- 4- نصر حامد أبو زيد، اشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط5، 1999 .
- 5- حسن حنفي، حصار الزمن الحاضر، اشكالات الحاضر، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1، 2003.
- 6- أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر القاهرة، 1994.
- 7- أبو زيد ، نصر حامد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي المغرب، 2000.

8-نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

9-نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، 1995.

10- أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر القاهرة، 1994